زوجات

ترجمة الأستاذ أحمد الصاوى محمد

كتاب رائع ، ذلك الكتاب الذى يقدمه الأستاذ أحمد الصاوى محمد إلى قراء العربية . وبهذا الكتاب يثب الصاوى وثبة أخرى فى الطريق الذى بدأه منذ سنين ، حين راح ينقل شتى الألوان من ثقافة الغرب إلى الشرق ، ويمزج بين هذه وتلك مزجاً موفقاً يقرب الشقة بين ذوق وذوق ، وبين فهم وفهم ، وبين شعور وشعور .

و « زوجات » يصدر معه كتابان آخران للصاوى هما « فوشيه » و « الفيرة من الماضى » ... ثلاثة كتب ومن قبلها بضعة وعشرون كتاباً ، تكون فى مجموعها ثلاث مدارس كما يحلو للأستاذ الصديق أن يصنف كتبه فينسب كلا منها إلى مدرسة خاصة ؛ فهناك مدرسة العبقرية ، ومدرسة الحرب والسياسة ، ومدرسة المجتمع ... وإلى هذه المدرسة الأخيرة ينتسب كتاب اليوم « زوجات » .

يقدم إليك الصاوى فى هذا الكتاب ثمانية ألوان من الطبيعة الإنسانية ، فى كل لون منها امرأة .. هى زوجة . وعلى اختلاف الميول وتباين الأهواء وافتراق النزعات ، تختلف الصور وتتباين الملامح وتفترق السمات ، ويتمثل لناظريك معرض من معارض الصراع القوى العنيف ؛ صراع العواطف والأفكار .. فيه لوحات نفسية ، وفيه نماذج بشرية ، وفيه مافيه من حيرة العقل ولوعة القلب ووقدة العاطفة واشتعال الوجدان!

وأقف بك وقفة متأنية ، متأملة ، عند الزوجة الأولى صاحبة « الكراسة الحمراء » ، تلك التى قضت العمر محلقة بالفكر على أجنحة الخيال ، تحلم حلماً طويلا لا نهاية له .. حلم أرض الميعاد ! هى قصة من روائع الأدب الفرنسى المعاصر لخصها الصاوى من قبل ثم عاد فنقلها إلى العربية نقلا أميناً ، كاملا ، احتفظ فيه بروح الفن فى لغته الأصيلة ؛ أما صاحبها فهو أندريه موروا عضو الأكاديمى فرانسيز وأما اسمها الحقيقى فهو « أرض الميعاد » ، ولكن قلم الصاوى شاء أن يخلع عليها اسماً آخر هو « الكراسة الحمراء » .. وقبل أن ألخص لك هذه القصة التى تشغل من الكتاب ما يقرب من ثلثيه ، قبل هذا أود أن أشير إلى قصة أخرى ظهرت فى أفق الأدب الفرنسى ، هى قصة « الباب الضيق » لأندريه جيد صاحب جائزة نوبل للأدب عن عام ١٩٤٨ . . فى قصتى جيد وموروا ناحية جديرة باهتمام القارىء المتمكن والناقد الذواق ؛ ناحية يلتقى فيها الكاتبان ويفترقان بعدها فى كل شىء !

أندريه موروا فى « أرض الميعاد » فنان ، وأندريه جيد فى « الباب الضيق » إنسان .. وكلاهما يبلغ القمة فى ميدانه : هذا فى إنسانيته وذاك فى فنه . وكلاهما يمضى بعد ذلك فى طريق ؛ تنزع القصة الأولى إلى الناحية الموضوعية أكثر مما تنزع إلى العرض والتحليل ، على حين تقتصر القصة الثانية على الناحية التحليلية الخالصة ، هناك حيث تطغى الألوان النفسية والظلال الإنسانية على كل ما عداها من ألوان وظلال ! وبعد ذلك أيضاً يمضى كل منهما فى طريق ... فبينما تجد موروا يصور العواطف الإنسانية فى بوتقة الشهوة الجسدية العارمة ، تلقى جيد يصهرها فى بوتقة اللذة الروحية الهائمة ؛ هناك شىء من الإباحية السافرة المتجردة ، وهنا شىء من الصوفية القلقة الغامضة . . . وفى كلتا القصتين صراع ملح عاصف عنيف ، هو فى « الباب الضيق » صراع بين روح وجسد ، وهو فى « أرض الميعاد » صراع بين روح وأجسادا

لمعالجة موضوع المناظرة ، والواقع أن الوقت كان يضيع بالتلجلج وتكرار العبارات العامية من غير طائل ، ولو أنهم أعدوا المناظرة ودونوا أفكارهم فى « تجربة » قبل الظهور على المسرح ، لأنوا بما يرجى منهم فى مثل هذه المناظرة ، فهم معروفون بالدراسة والبحث وسعة الاطلاع ، ولكن الارتجال والاستهانة باللغة الصالحة للتعبير العلمى الدقيق ، جعلاهم يقضون نحو ساعتين فيما لا يستحق هذا الزمن من أمثالهم ، وقد شعر الحاضرون بذلك ، وكانوا جمهوراً كبيراً ، أتوا ليستمعوا إلى هؤلاء الأعلام ، ولم يضنوا على عقولهم بثمن الدخول الذى تتقاضاه الجامعة الأمريكية ولعلها الوحيدة فى مصر التى تفرض أجراً على سماع المحاضرات والمناظرات العامة.

عباس خضر

في نطاق هذا الصراع الروحي الشاذ تتفق القصتان ويلتقي الكاتبان ، ولا أقول إنه اتفاق كامل أو التقاء كامل ، ولكنه اتفاق والتقاء على كل حال ، يتمثلان في شخصيتين وضعهما جيد وموروا تحت مجهر التحليل النفسي وهما « إليسا » بطلة « الباب الضيق » و « كلير » بطلة « أرض الميعاد » . كلتاهما خلقت تنشد الحب الذي لا تدنسه شهوة ، ولا يشوه من قداسته لذة ، ولا يعيث بطهره إثم ، وهذا هو الحب المثالي الذي تضيق به دنيا البشر ، وكلتاهما لقيت في سبيل هذا الحب آلاماً مبرحة وعذاباً لا يطاق ، وتلك حال من يعيشون على الأرض وقلوبهم متعلقة بالسماء ، لا شيء غير الصراع .. صراع القلب والعقل ، صراع الفكر والعاطفة ، صراع الجسد والروح ! ... أما موروا فقد شاء لبطلته أن تخضع لمنطق الحياة والناس على ما فيه من قسوة ومرارة ، ولكنه خضوع المجبر المغلوب على أمره حين تتألب عليه القوى فيلقي السلاح ، وتظل المعركة إلى الأبد محتدمة في نفسه وشعوره ؛ وهذا هو منطق الفنان ! ... أما جيد فقد آثر لبطلته أن تقاوم حتى النهاية ، وأن تحمل من الشقاء في سبيل مثلها العليا فوق ما يحمل طوق الأحياء . لقد استحال جهاد الإنساني على مر الزمن حباً إلهياً فيه من شفافية التصوف ما يقرب بينها وبين الله . . . وفي فصل البوميات من « الباب الضيق » تهتف « إليسا » من الأعماق مشيرة إلى « جيروم » : « يا إلهي ، تمنيت لو نقبل كلانا عليك ، تدفع أحدنا قوة الآخر! لو نمشي كل طريق الحياة حاجين يقول أولهما للثاني : استند إلى ذراعي يا أخي إذا تعبت ، فيجيبه : حسبي أن أراك إلى جانبي ! ولكن لا ؛ إن الطريق التي توصينا بها يا إلهي طريق ضيقة ، ضيقة حتى ما يستطيع سلوكها قرينان ! ... يا إلهي ، لم اخترت لنفسي مرارة الحرمان ! أترانى أطلب غير الحب فتنة أعذب وأقوى ! آه لو تملك دفع نفسينا معاً بقوة الحب إلى ما وراء الحب نفسه ! » وهذا هو منطق جيد .. منطق الإنسان !

وأعود بك مرة أخرى إلى قصة أندريه موروا . . . نشأت كلير منذ صباها المبكر تتطلع إلى الحب بعينين حالمتين وقلب ظمآن ، ولكن مربيتها الإنجليزية ذات الطبع البارد والوجدان الفاتر كانت تحذرها دائماً من أخطار الحب ، ونزوات العاطفة ، وغواية الرجال .. كانت كلما حملتها أحلام اليقظة على جناح الأمل إلى أرض الميعاد ، ردها صوت المربية العجوز إلى أرض البشر : إحذري يا فتاة إن الرجال ذئاب ، تقودهم إلى مهاوي الرذيلة شهوات وغرائز ! وشبت كلير عن الطوق ولا يزال في نفسها وسمعها من دروس المربية العجوز رنين وأصداء ! ... أما أنواءها فقد تلقت عنهما من الدروس ما طبع نظرتها إلى الحياة بطابع القلق والحيرة والترجح بين قسوة الواقع ومثالية الخيال ؛ كان أبوها ضابطاً كبيراً عوده جنوده أن يأمر فيطاع ، وعودته الطاعة العمياء أن يرى فيمن حوله آلات يدفعها فتندفع !

وهكذا عاشت كلير .. لا يسمح لها أن تبدي رأياً ، ولا يؤذن لها أن تعلق على أمر ، ولا يتاح لها أن تعترض على وضع من الأوضاع . . . أما أمها فكانت امرأة شاذة غريبة الأطوار ، لا تعترف بهذه العاطفة المقدسة التي يسميها الناس حباً ، وكثيراً ما كانت تضم صوتها إلى صوت المربية العجوز في تحذير ابنتها من لعنة الحب ، وخبث الطوية عند الرجال ! . . ومما ترك أثراً عميقاً في نفس كلير أنها كانت كلما قادها الخيال إلى حلم كل عذراء ، إلى ليلة الزفاف ، ارتفع صوت مربيتها ليقول لها في دهشة مقرونة بالعجب والاستنكار : « ليلة الزفاف ؟ ألا تعلمين ما هية ليلة الزفاف ؟ ! ... تصوري مذلة أن تتجرد المرأة أمام رجل ، وأن تظل عارية تماماً رهن مشيئته ، وطوع إرادته ، وتحت رحمته ! ... آه من شناعة هذا كله ! »

في هذا الجو الملبد بالقسوة ، المفعم بالرهبة ، الحافل بالشذوذ ، عاشت كلير ... ومن هذا الجو الخانق خرجت إلى الحياة لتواجه الحقائق بعقلية الأب والأم « ومس برنكر » المربية العجوز ، عدوة الرجال ولكنها كانت أبداً تحلم بأرض الميعاد ، أرض العبقرية ، أرض النبوغ . أرض الوحي والإلهام .. كانت تتمنى أن تصبح يوماً كاتبة عظيمة أو شاعرة عظيمة ، وحين لم يتحقق لها شيء من هذا كله ، راحت تحلم بأن تكون زوجة لكاتب عظيم أو شاعر عظيم ، وما أجلها من أمان عذاب وهي تتخيل نفسها إلى جانبه ، تعطف عليه فتوحي إليه ، وتلهبه فتلهمه ، ويذوقان معاً أول قطرة من قطرات الخمرة المسكرة .. خمرة الفن والمجد والخلود !

ولكن الأيام تمضي بها في طريق كل معالمه صخور وأشواك .. لقد دفعت بها إلى أحضان رجل لا يفهم لغة الفن ، ولا موسيقى العواطف ، ولا نبضات القلوب ؛ وهكذا قدر لكلير أن تعيش في رحاب زوج لا يكاد يرى المرأة إلا من وراء منظار الشهوة المحترقة ، الشهوة التي تنشد الجسد ولا تعبأ بنداء الروح ، الشهوة التي لا تصغي لصوت غير صوت الغريزة ، صوت الحيوانية المتأججة في الأعماق ! . كان « ألبير لاراك » ملكاً من ملوك

المال ، وفى بيته عاشت كابر كما تعيش الملكات ، ولكن شيئاً واحداً كان يحيل النور فى عينيها الساحرتين ظلاماً ، ويلهب روحها بسياط العذاب ، ويفجر الألم فى أعماقها تفجيراً . . . هو تلك العلاقة الجنسية « الشائنة » التى يفرضها عليها منطق الحياة والأحياء ! . . . هذه الروحانية الشفافة التى كانت تحلم بها فى أرض الميعاد ، وهذا الهيام العلوى الذى كان يربطها بالسماء ، وهذا الشعور المثالى الطليق المحلق فى آفاق الخيال ، هذا كله قد تحطم على أرض البشر . . . ويا ويح الخيال حين يرتطم بقسوة الحقيقة ومرارة الواقع ! حتى هذا الطفل الذى أنجبته لم يثر فى حنايا الضلوع عاطفة ، ولم يشعرها يوماً بحنان الأمومة ؛ لقد كان يذكرها دائماً بأنه أتى إلى الدنيا عن هذا الطريق الذى كانت تبغضه ، وتنفر منه ، ويرمض جوانحها بالعذاب . طريق العلاقة الجنسية « الشائنة » ، علاقة « الشقاء المقدس » لا الرباط المقدس! هكذا كانت تشعر كابر ، وتنظر إلى منطق الحياة والناس!

أرض الميعاد ، ولا شىء غير أرض الميعاد .. أين من يقودها إلى هذه الأرض التى أقامت لها فى معرض الفكر صوراً فاتنات ، وحشدت لها الخيال يمدها بكل ما فى إبداعه من ألوان وظلال !. لقد وجدته ، وجدته أخيراً وكأنهما كانا على ميعاد ، وجدته فى شخص شاعر عظيم فتنها برقته ، وغزا قلبها بعبقريته ، وسحرها بلطف حديثه ، وكان اسمه .. « كريستيان منتربيه » !

وفى هذا الظل الظليل من عبقرية الحب وحنان الحبيب ، نسيت كابر أن لها زوجاً وبيتاً وابناً .. كل خلوة مع الشاعر ، وكل رحلة مع الشاعر ، وله ألف نزهة تهيئها الأحلام تحت ضوء القمر ! . وتصل أنباء الزوجة إلى الزوج بعد أن أصبحت حديثاً تجهر به الشفاه ، وينتهى الأمر بينهما إلى الطلاق . ويعود هو إلى أشجانه ، وتعود هى إلى كريستيان منتربيه !

وفى رحاب الزوج الجديد عاشت كابر .. عاشت فى رحاب الرجل الذى ضحت فى سبيله بالزوج والابن وكل نعيم يهيئه للمترفين سلطان المال ! وكم عطفت عليه فأوحت إليه ، وكم ألهبته فألهمته ، ولكنها لم تذق معه تلك الخمرة المسكرة ... الخمرة التى عتقتها الأوهام فى دنان أرض الميعاد !. لقد كان الشاعر وا أسفاه بشراً ككل البشر !! وفى تلك الرسالة التى بعثت بها كابر إلى كريستيان بعد اثنى عشر عاماً من زواجهما ، يصور أندريه موروا بريشة الفنان المبدع ، كل ما كان يعتلج فى نفس بطلته من صراع رهيب بين الروح والجسد ، ظل إلى أن ودع الشاعر الحياة ، أقباساً من وهج اللوعة وفنوناً من عبقرية الألم ! .

ونقتطف هنا فقرات من هذه الرسالة الملتهبة :

« يا حبيبى الأعز ، إننى منذ مقامى هنا قد بدأت ثم مزقت عشر مرات رسالة كنت أريد وكان ينبغى لى أن أوجهها إليك منذ وقت طويل . إن ما لدى وعلى أن أقوله مؤلم لى ، وأخشى أن يسبب لك ألماً . . . إننى لا أظن يا كريستيان أنك تستطيع أن تتصور إلى أى حد قد تألمت منذ اثنى عشر عاماً ، لقد كنت معجبة بك ، لقد كنت أحبك ، لقد كنت غير راغبة فى أن أكون لك . لا لك ولا لسواك . وما كان أسعدنى لو بقيت إلى جانبك صديقة ، أو لو استطعت خاصة أن أكون ملهمة ، ولكنك لم ترد ذلك ! وقد استسلمت خافضة جناح الذلة لأنى خشيت إذا أنا قاومتك أن أفقدك . . . لقد توقعت منك إذا أنا فرضت على نفسى تضحية إعطاء نفسى ، أن أجد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت مما لم يكشف لى الزواج عنه الحجاب ، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ولم ينكشف لى الحجاب عن الوادى العجيب ، ولم ألمح أرض الميعاد يا كريستيان !

إنى أحبك يا كريستيان ولا أحب سواك ، وإن من عناصر مأساتى أننى لك وسوف أكون مخلصة إخلاصاً لا يأتيه الشك ولا ينال منه شىء ولو بلغ بى اليأس والقنوط حد الجنون .. إنك لو أردت فوضعت فى زواجنا من الشعر بقدرما تصنع فى غراميات الأبطال الذين تخلقهم ، فربما كنت أبلغ من الحرارة الدرجة العالية علواً خارقاً ، الدرجة اللازمة لتصهر تحفظى وتذيب جمودى . . . إن فى الحياة الزوجية — على النحو الذى يخيل إلى وكما أتصورها — شيئاً متكرراً ، شيئاً فاحشاً يثلج بدنى ! وإنى أفترض أننى مخطئة ، وأن المرأة الطبيعية العادية تجد شيئاً طبيعياً عادياً هذا « الهوى الجسدى الأعظم » كما هو عندكم أيها الرجال كل مساء ، من دون أن تتلف هذه الحركات والإشارات فى كل مرة بالشعر والقلق والجمال . لكن ما حيلتى وقد خلقت هكذا ؟ ! .. إن أعصابى تحترق شيئاً فشيئاً من تكرار هذه المأساة ، بل إن عقلى نفسه قد اضطرب ! وتتصاعد فى كيانى أبخرة الضغن والغيرة ، وأحياناً الحقد ، على تلك المخلوقات البريئة التى كل جريمتها عندى أنها تتذوق لذات تأباها على طبيعتى ... ! »

بعد هذه الزوجة الشقية التعسة ، تجد ست زوجات أخرى تلخص الصاوى حياتهن من قصص ومسرحيات مطولة فى الأدب الفرنسى ، وسترى أن واحدة منهن قد لقيت من الشقاء والتعاسة